



كاتب العرائض ..

للأستاذ نجاتي صدق



تذكر جيل الكرماوي بسد مضي نحس وثلاثين سنة من عمره ، أن والدته كانت تقول له في حديثه : والله يا بني لأزوجنك متى كبرت من فتاة شامية ، جسمها أبيض مثل الثلج ، وشعرها أشقر مثل الذهب ، وخداها أحمران مثل التفاح ، وكان هو يسمع كلام أمه هذا وعلى ثنره ابتسامة الهدأة البريئة . وماتت أم جيل ، وتماقت السنين ، فكبر جيل ، وتحطى العقد الثالث ، وأناخ الدهر عليه بأثقاله وهمومه ، فكان من البائسين المدمين ، يضطر إلى ممارسة كتابة العرائض كوسيلة للمعاش ..

ورأس ماله في هذه الهنة : صندوق خشبي صغير ، وكرسی أسفر ، ومحفظة كرتونية ، وقلم حبر ، ودواة ، والقليل من الأوراق ، ونسخة من قانون العقوبات الجديد الذي نسخ قانون الجزاء المبادئ القديم .

وبعد أن عمل في هذا الحقل عشر سنوات ، تمكن من ادخار بعض المال بفضل صفقات خاصة عقدها مع السذج من الفلاحين ، وكان يخفى هذا المال في حزام لا ينفك يطوق خصره ليلاً ونهاراً ... وذات يوم راح يخاطب نفسه : أنت وحيد يا جيل ، وعليك أن تجد سيلاً قوياً لتتدبر فيه أمر ما ادخرته من مال ... هيا افتح لنفسك مكتباً يرفع من مكانتك بين الناس ... كلا . كلا ... هيا افتح لنفسك حانوتاً يدر عليك الربح الوفير ... كلا . كلا ... لا هذا ولا ذاك ... عليك أن تتزوج من امرأة غنية تستفيد من ثروتها واذكر ما كانت تقوله له المرحومة أمك : « والله لأزوجنك من فتاة شامية » وسرعان ما سافر إلى دمشق في طلب المروس .

حل جيل أفندي في فندق « أمية » في دمشق ، وهو من أشهر فنادق العاصمة السورية ، وسجل في دفتره اسمه : « جيل بك الكرماوي محام من القدس » ... وكان يضع على عينيه نظارة بسلسلة ذهبية ، ويلبس لباساً أنيقاً ، ويثبت في يافته دبوساً ثميناً ، ويحلي أصابعه بخواتم ذهبية ، وأشاع في الفندق بأنه أتى دمشق يطلب زوجة .

وإذ علم سمارة الزواج في دمشق أن في فندق « أمية » وجيهاً فلسطينياً يود الزواج من فتاة مثرية ، هرعوا إليه ، وطرحوا خدماتهم عند قدميه .

وكان بطل قصتنا بحكم عمله ككاتب عرائض خبيراً بضروب الدجل والمخاتلة . فكان يستقبل سمارة العرائس ، ويكرم وفادتهم ويساومهم ، ويستفهم عن الأمر القديمة الفنية ، ويجمع عنها المعلومات المفصلة إلى أن قرأ رأيه على خطبة بنت (...) باشا ، وهي تنحدر من أسرة تركية عريقة استوطنت دمشق منذ أيام عبد الحميد ، ثم آثرت ، واستعرت .

وبعد مداوات مع أهل المروس ، وهدايا متواصلة حملها جيل بك لابنة الباشا ، وحديث مطول ألقاه على مسامعهم عن أسلاكه في فلسطين في عين كارم والخليل ... وبياراته في يافا واللد ... وعن مكتبته الرئيسية في القدس ، وفروعه المنتشرة في جميع أنحاء البلاد المقدسة ... اقتنعت أسرة الباشا بمكاتبته جيل بك السامية ، وكان له شريك في القدس يرسل إليه برقيات عن سير « القضايا » في دور المحاكم ! ...

وهكذا تم عقد قران ابنة الباشا على جيل بك الكرماوي في حفلة اقتصر فيها الدعوة على الأقارب والأصدقاء ، ثم رحل المروسان إلى لبنان ليقتضيا شهر العسل في فندق (القاصوف) في زهور الشوير ... وطالما كان يحدث المريس عروسه وهما في مصيفهما الجميل هذا ، عن أشهر مرافقاته في المحاكم محركا يديه ، وملوحاً بأحكام (الروب ... دي شامبر) ، ومتقلبا في الغرفة ذهاباً وإياباً ، وكانت عروسه تستمع إليه طربة ، وهي مستلقية على مقعد وثير طويل وقد عقدت يديها تحت رأسها . وقالت له مرة : تحدثني كثيراً عن قضاياك ... لكنك لم تحدثني قط عن حياتنا الزوجية في بلدك وكيف ستكون ؟

جميل ... فقال لها : إننى لا أعرف جميل بك المكرماوى ، لكننى أعرف جميل المكرماوى كاتب العرائض ، وهاموذا يجلس فى تلك الزاوية من العيادة ... وأنصحك بالألا تكتبى عنده شيئاً فهو شخص يفرر بالسذج من الناس وإننى للى استعداد بأن أتقاضى منك من الأجر نصف ما يتقاضاه هو ... يضاف إلى ذلك أننى آخذ على عاتق ملاحقة فضيتك فى جميع الدوائر ، هلا أطلمتنى أيتها السيدة على ماهية فضيتك هل هى جزائية ... أو حقوقية ... ؟

وتركته المرأة مسرعة إلى حيث أشار ، فرأت زوجها يضع ورقة على ركبته ، والمرق يتصبب من جيبنه ، وهو يكتب رسالة لوجل فقير كسيح ...

فصرخت ... وخرت على الأرض مغنى عليها .

نجانى صرفى

إذا أردت نموذجاً

من الميزان الدقيق ، والتحليل العميق ، والرائح الثاقب ، والنقد الصائب ، والدليل الذى يرشدك إلى قيم أشهر الكتب وأقدار أشهر الكتاب فاقراً :

كتب وشخصيات

للمؤسّس الناقد سير قطب

فهو خير ما صدر فى هذه الفترة الأخيرة

من كتب التحليل والنقد

يقع فى ٣٥٢ صفحة من القطع المتوسط

ويباع فى إدارة الرسالة

وفى سائر المكتبات الشهيرة وثمانه ٢٥ قرشاً بعد اجرة البريد

قال : دعى الحديث عن حياتنا المقبلة ، فقد صرنا الآن روحين فى جسم واحد ، أو جسمين تحتلج فيهما روح واحدة ... وتقى بأننى سأوفر لك جميع أسباب الرفاهية والسعادة فى منزلى الجديد الذى أبنيه فى حى القطمون فى القدس . والآن أرجوك ترك هذا الموضوع الجاف ، وهيا بنا إلى البستان لنأكل ما طاب لنا من الفاكهة .

وبعد انقضاء شهر العسل سافر العروسان إلى القدس ، ونزلا فى بيت فقير شبه قذر يقع فى عملة (وادى الجوز) ... ولما وطئت قدما ابنة الباشا هذا البيت ارتدت إلى الخلف مذعورة وقالت : ما هذا الذى أراه يا ابن عمى !

قال : لا تضطربى ... إننى متخاضم مع أهلى ، وقد انفصلت عنهم مؤخراً ، واضطرت إلى استئجار هذا البيت المفروش مؤقتاً إلى أن يتم بناء بيتى الجديد فى حى القطمون ... وبيتى الجديد ... صفواً ... بيتنا الجديد ، هو عبارة عن طابقين مبنيين من الحجر الأحمر المرقق ، وله حديقة غناء مزروعة بأطيب الزهور والرياحين ، وله أربع شرفات فى جوانبه الأربعة ، تطل لإحداها على المدينة المقدسة ، وتطل الثانية على هضاب بيت لحم ، وتطل الثالثة على قرية المالحه ، أما الرابعة فتطل على أحياء القدس المصرية ، وسافرته بأغزر الأثاث المصنوع من خشب الزيتون . وصرّ الأسبوع الأول ، ثم تلاه الثانى والثالث ، ثم اكتمل الشهر ... وكل شئ ، باق على ما هو عليه ضمن الوعود المتواصلة وكانت سيارة تآنى إلى البيت فى كل صباح لنقل جميل بك إلى عمله ثم تعيده مساء ...

ويبدو أن ابنة الباشا قد خامرها بعض الشك فى سلوك زوجها ، فمقدت النية على أن تزوره فى مكتبه وأن تلج عليه بالذهاب معاً لرؤية البيت الذى لم يكتمل بناؤه بعد . وراحت فى أحد الأيام تبيحث عنه وعن مكتبه بجوار دور المحاكم ...

وهناك سألت أحد سعاة البريد عن مكتب المحامى جميل بك المكرماوى ، فقال لها إنه لم يسمع بهذا الإسم قط ... ثم سألت غيره فتلقت منه الجواب ذاته ... ثم سألت عنه أحد كتاب العرائض ... فقهبه هذا وظنها عميلة جديدة وقمت فى فتح زميله